الحوار ودوره في إبعاد الصراع بين الحضارات

عبد السلام أحمد فيغو(*)

كلية الحقوق، جامعة محمد الخامس ـ الرباط.

مقدمة

يعيش العالم اليوم مرحلة تموج فيها اقتراحات متعددة، وأطروحات مختلفة، وآراء متباينة تدور حول موضوع الحوار بين الإسلام والغرب، أو الحوار بين الإسلام والأديان السماوية الأخرى، كما نسميه نحن المسلمين، أو الأديان الإبراهيمية كما يقبل البعض في الغرب أن يسميها، أو حوار الحضارات، أو المسمّى الذي كان الجيل السابق لنا يطلقه وهو الحوار بين الشرق والغرب، أو تحالف الحضارات في آخر مسمّى وفد إلينا من الغرب.

إن الإسلام هو النصّ المحفوظ قرآناً وسنة، أي أنه اسم الدين السماوي الذي ارتضاه الله سبحانه للناس بقوله تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[1]، وهو الدين الذي يتضمن العقيدة والنظام كما نجدهما في القرآن ونتلمسهما في السنة النبوية الشريفة، وأما المسلمون فهم الذين يعتنقون الإسلام عقيدة ويطبقونها على أنفسهم، وفي تعاملهم مع غيرهم بالعمل الصالح، ويدعون سواهم إلى تطبيقه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويقولون بعدها إننا من المسلمين، لقوله تعالى: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**﴾[2]، فهم المعتنقون للنصّ بمختلف تفسيراته وتأويلاته.

وحين نضع حوار الغرب والإسلام في إطاره الأوسع من الحوار الثقافي العالمي، فماذا نجد؟ هناك ثقافة واحدة مسيطرة عالمياً هي الثقافة الغربية، وهي تمد كلّ حوار صغيراً كان أو

(*) من مؤلفاته: **الحقوق المالية للمرأة بين عدل التشريع وواقع التطبيق: شبهات حول ميراث المرأة** (٢٠٠٣)؛ **العولمة الثقافية وايديولوجية الهيمنة** (٢٠٠٥)، و**التصرفات الصادرة من المريض مرض الموت** (٢٠٠٥).

(١) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٩.

(٢) المصدر نفسه، «سورة فصلت،» الآية ٣٣.

كبيراً بمفاتيحها الخاصة، ومصطلحاتها ومفهوماتها، والغرب لا يبدي أي استعداد لتفهم أي ثقافة عريقة، والتعامل معها، يقول صامويل هانتنغتون: «إن المعتقدات الغربية العالمية تفترض أن شعوب العالم بأسره لا بدّ أن تعتنق القيم والمؤسسات والثقافة الغربية، لأنها تجسد أوفى فكر، ولأنها أكثر استنارة وليبرالية وعقلانية وحداثة وتحضراً»(٣).

فالقيم التي يريد الغرب فرضها على الإسلام وأمته وعالمه هي قيم الحداثة الغربية التي تريد تغيير طبيعته وعزله عن شؤون الدولة والاجتماع وتحويله إلى صورة من صور المسيحية الغربية التي خضعت للعلمنة.

إن المقاربات الموضوعية التي تناولت علاقات الحضارات ببعضها تشير إلى أن الحضارات لا تتصارع أو تتحاور، بل الناس هم الذين يتصارعون ويتحاورون لأسباب تتعلق في المقام الأول، بأن مواقفهم لا تنبع من معطياتهم الحضارية والثقافية، بقدر ما تنبع من مواقفهم في البناء الاجتماعي، فالحضارات تتفاعل وتتعاون ولا تتصادم، لأن من يقود الحروب والمعارك هم الناس وليس الحضارات، ولذلك يقترح البعض مقاربة جديدة تنبني على مجموعة من الفرضيات أو من المعطيات الأولية وهي كالتالي:

إن الحوار يمثل حركة فكر ينفتح على حركة فكر آخر في صراع الأفكار التي تتصادم وتلتقي وتطوف في أكثر من أفق.

ـ ليس الحديث عن الحوار وشروطه وأخلاقياته وإجرائياته هو الحوار نفسه، ومن ثمّ يضيع علينا كثير من الوقت دون تبين معالم وسيرورات التفاعل الحضاري الذي نقول به.

ـ من الصعب تصور حوار بين مجردات كالحضارات والثقافات، فالحوار يكون مباشراً بين أعيان، لذلك يتخذ مظاهر الاختلاط والتمازج والتلاقح، بهدف إغناء الذات الحضارية بمفاعيل تقوي حضارة ناشئة ما.

ـ إن التفاعل الحضاري يتم عبر قنوات القراءة والبحث والنقل والترجمة.

ـ إن أهم خاصية للتفاعل الحضاري هي أنه يركز على الفعل البناء بتجاوز نقط التباعد والتنافر بسبب العقيدة أو الايديولوجية، أو بحسب مصطلح من مصطلحات علم الكلام الإسلامي «الانتصار» للعقيدة أو للرأي، على عكس التفاعل الذي لا يهم فيه سوى الاختلاف، وما يمكن من إقامة توافق أو إضافة أو دعم.

ـ يقتضي منطق التفاعل الحضاري إقصاء منطق العنف والمواجهة المسلحة، لذلك فإن كلّ حضارة تبنى على الحرب، والحرب وحدها، لا تقوى على الاستمرار، ولا تأتي بجديد يفيد الإنسانية(٤).

---

(٣) صامويل هانتنغتون، **صدام الحضارات**، ط ٢ (القاهرة: دار سطور، [د. ت.])، ص ٥٠١.

(٤) محمد مصطفى القباج، **مقاربات في الحوار والمواطنة ومجتمع المعرفة** (فاس: دار ما بعد الحداثة، ٢٠٠٦)، ص ١٧ وما بعدها.

سنقوم بتقسيم هذا الدراسة إلى ثلاثة محاور، نتناول في **الأول** التعمق في دراسة المفاهيم المتصلة بالحضارة وبمفهوم الحوار، ونخصص **الثاني** للبعد الديني في حوار الحضارات والأسس التي يجب أن يقوم عليها، أما **المحور الثالث** والأخير فسنخصصه لقضية التصادم والتدافع بين الحضارات.

أولاً: دراسة المفاهيم المتصلة بالحضارة وبمفهوم الحوار

إن الحوار يمثل حركة فكر ينفتح على حركة فكر آخر في صراع الأفكار التي تتصادم وتلتقي وتطوف في أكثر من أفق، لتصل إلى وحدة فكر إذا استطاع الوصول بها إلى قناعة مشتركة، أو إلى وعي عميق للجذور والخطوط والتفاصيل إذا بقيت القناعات متباعدة في لقاء التفاهم الذي قد يوحي بتأمل أعمق بعيداً عن العصبية، أو تجربة جديدة تفسح المجال لحوار جديد.

١ ـ مفهوم الحضارة

أعتقد قبل الدخول في صلب الموضوع، أنه لا بدّ أولاً من التعرض لمفهوم الحضارة، فالحضارة هي فضاء وشكل. هي فضاء من حيث كونها مشتركة بين عدة أوطان ومجتمعات وشعوب، تتقاسم ماضياً عريقاً، بمعنى أن الحضارة في حقيقتها تتجاوز حدود الوطن الواحد. وهي شكل لأن معالمها الأساسية تتجلى في التعقد واللا تجانس، وفي درجة عالية من التطور التقني الذي ينتجه تطور فكري(٥).

ويعد مصطلح الحضارة(٦) ـ على الرغم من شيوع استعماله ـ من المصطلحات التي يصعب الاتفاق على تعريفها. غير أن أكثر التعريفات قبولاً هي تلك التي تتبع المصطلح منذ نشأته وتستقصي دلالته في الفكر الغربي والإسلامي، والذي يمكن أن نشير إليه إشارة موجزة وهي أن الحضارة كانت على مرّ العصور تعبيراً عن إسهام أمة من الأمم في رصيد الأفكار وما ينتج عنها من اكتشاف واختراعات وصناعات، وشعر وفن، ونظم ومؤسسات وقيم ومبادئ، المتراكم عبر الزمان(٧).

---

(٥) المصدر نفسه، ص ١١.

(٦) لفظة الحضارة في الأصل اللغوي تقابل البداوة، قال الشاعر العربي:

فمن تكون الحضارة أعجبته ... فأي رجال بادية ترانا

وذكر الزبيدي في **تاج العروس**: «إن الحاضرة هي خلاف البادية»، «والحضارة الإقامة في الحضر والحاضرة، والحضرة، والحضر هي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار». انظر: أبو الفيض مرتضى بن محمد الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج [وآخرون]؛ راجعته لجنة فنية من وزارة الإرشاد والأنباء، التراث العربي؛ ١٦، ٤٠ ج (الكويت: حكومة الكويت، ١٩٦٥ ـ ٢٠٠١)، ص ٤٩ و٤٠ على التوالي.

(٧) يعرفها وول ديورانت بأنها: «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وتتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون». انظر: وليم جيمس ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود ومحمد بدران، ٥ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٩ ـ ١٩٥٩)، ص ٣.

والحضارة باختصار شديد هي المنظومة الفكرية والسياسية والأخلاقية التي تربط وتحكم الماضي بالحاضر، بحيث تتفاعل في ما بينها وتتناسق، فهي إذاً ذلك الكيان المعقد الذي يضم المعرفة والمعتقدات، والفنون، والآداب، والقوانين، والعادات، وجميع القدرات والتقاليد التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع(٨).

ويستعمل الكثيرون مصطلح الحضارة للإشارة إلى مجتمع متجانس ثقافياً وتاريخياً. وعلى الرغم من أن الاصطلاح ينطوي على الكثير من الغموض والالتباس، فإن كثيرين ينجحون في تحديد معان مشتركة له، ولعل ذلك في حدّ ذاته كان لفتح باب الحوار.

في المفهوم الإسلامي، يشكّل الجانب الروحي أساس الحضارة، ويحظى هذا الجانب بالأولوية. والحضارة الإسلامية ليست من وضع الإنسان كالحضارات الأخرى، فقد ارتكزت على التوحيد، والنبوة، والمساواة، والعدل، وهي أسس خاصة بالحضارة الإسلامية، لا صلة لها بالحضارات المادية السابقة على رسالة الإسلام كالسريانية، والفارسيّة، والرومانية، واليونانية والهندية، وهي بالتالي بعيدة عن التعقيدات الفلسفية والجدل الذي يقود إلى الخلافات العقائدية، كما ارتكزت على الإنسانية، ولا نعني بذلك أنها من صنع الإنسان كالحضارات الأخرى، ولكن نعني أن الحضارة الإسلامية تساوي بين بني البشر، ولا تفرق بين الأجناس والألوان والعناصر، فأساسها العقيدي يرتكز على التوحيد والإيمان، وعلى مبادئ منزلة من السماء تخاطب الناس جميعاً وتركز على وحدة البشر داعية إلى الإخاء والمساواة في الالتزامات في الحقوق والواجبات، فكلهم يعودون إلى آدم، وآدم من تراب.

لقد آن الأوان للكف عن النظر إلى الحوار الحضاري باعتباره وسيلة لتحقيق المنافع واكتساب الأسواق، كما آن الأوان للكف عن ربطه بالنزعة الأمنية، فنحن لا نمثل مصدر تهديد، ولا منطقة خطر بالنسبة إلى الغرب، لا انطلاقاً من مواقف آنية، ولا استجابة لظروف وقتية، ولكن لأن مبادئ ديننا تدعو إلى ذلك وتحث عليه، تجسيداً لوحدة النوع الإنساني، وترسيخاً لمبدأ سواسية الناس في الخلقة، وتحقيقاً لإرادة الله عزّ وجل في جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، ذلك التعارف غير المقصود لذاته، وإنما لما يثمر لخير الجميع، إذ التمايز تمايز تناقض»(٩)، وهذه هي رسالة الحضارة.

٢ ـ مفهوم الحوار

تشترك الحضارات على اختلاف مشاربها في أصول عدة، وعناصرها ليست كلها متناقضة، بل هناك الكثير من القواسم الحضارية الإيجابية المشتركة التي تشكل عاملاً مشتركاً. والتحليل الموضوعي البنّاء هو الذي يميل إلى التركيز على هذه العوامل المشتركة

---

(٨) قسطنطين زريق، في **معركة الحضارة: دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها وفي الواقع الحضاري**، ص ١٢٩ وما بعدها.

(٩) أحمد طالب الإبراهيمي، «حوار الحضارات،» **مجلة العربي**، العدد ٤٧٧ (آب/أغسطس ١٩٩٨).

للوصول إلى نتائج تقودنا إلى الحوار البنّاء الذي لا بدّ منه في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الحضارات العربية والإسلامية والحضارة الغربية، وهذه القواسم الحضارية الإيجابية هي التي تشكل السلاح الذي يجب أن يستثمر للحيلولة دون بلوغ الحضارات درجة التصادم، وأعتقد أن هناك نقاط أساسية في الحوار، ألخصها كما يلي:

أ ـ ماذا يعني حديثنا عن حوار الحضارات؟

الحوار الحضاري قضية إنسانية دائمة الحضور في ساحة الفكر العالمي، وهذا الحوار هو ضرورة حتمية، وواجب أخلاقي وإنساني، وشرط مؤكّد للتعاون الإيجابي والمثمر، وللتعايش السلمي بين البشر. ولأنه قضية وحاجة إنسانية فهو وسيلة مهمة للتفاهم والتعايش بين الأمم لما له من أهمية في حلّ النزاعات وإحلال السلم، خاصة في ظلّ التوتر الذي يشهده العالم في الوقت الحاضر، وما يرافق ذلك من محاولات التشويه التي تتعرض لها الحضارة والثقافة الإسلاميتين بل والإسلام نفسه.

ومن المعلوم أن هذا الحوار مع الغرب يكاد يعني المسلمين، من دون غيرهم، باعتبارهم يمثلون الحضارة والثقافة اللتين استعصى تذويبهما في التبعية المطلقة للحضارة الغربية.

والإسلام والمسيحية فيهما قيم مشتركة وفضائل عامة يدعو إليها الكل مثل المحبة والعدل والسلام، والطهارة، ونحن نحتاج إلى أن نوصل هذه القيم من خلال الحوار.

إن الحوار الحضاري إذاً باعتباره شكلاً من أرقى أشكال ومظاهر التعبير عن الهوية البشرية والانتماء، فإنه يعتبر بعداً متميزاً ومتحكماً في الدينامية الجديدة للعلاقات الدولية والاستراتيجية المستقبلية، وسيكون أحد العوامل الفاعلة في تحديد النزاعات القادمة[١٠].

ومع تزايد التهديدات التي لحقت بالأمن والسلام الدوليين، وكان سببها الغرب وليس العرب أو المسلمون، وانتشار مظاهر العنف واستخدام القوة خلال القرن الماضي، ما أدى إلى سقوط ما يقارب من مئتي مليون من الضحايا، تنادى العديد من الأصوات الإنسانية ممثلة في اتجاهات فكرية، ومنظمات ودول وأفراد، إلى حماية ما يهدد البشرية من صراعات وحروب، فتأسست المنظمات الدولية والإقليمية صوناً للسلام، وتحقيقاً للتعاون وبرزت الحاجة، في السنوات الأخيرة، إلى تكريس الحوار بين الثقافات والحضارات، ووضع مرتكزاته وتصورات آليات لقيامه[١١].

ولم يكن من العسير على الثقافة العربية الإسلامية أن تندرج في هذه الدعوة إلى الحوار، فهي ثقافة زاخرة بقيم التسامح، مليئة بمبادئ التضامن والتعاون. وقد لا يخفى أن موضوع

---

(١٠) إدريس البخاري، **أي مستقبل للحوار الحضاري في القرن ٢١** (الرباط: مطبعة فرانس، [د. ت.])، ص ٦.

(١١) أحمد عبد الرحيم السايح، «التعايش السلمي بين الشعوب،» **مجلة التصوف الإسلامي**، السنة ٢٩، العدد ٣٣٧ (شباط/فبراير ٢٠٠٧)، ص ٤٠ وما بعدها.

الحوار له تعلق كبير بفنون أخرى مستقلة «كفن الجدل» وفن «البحث والمناظرة».

ونحن كمسلمين نؤمن بأن للآخر دينه ولنا ديننا، ولكن الحوار يمتد لحسن الجوار والتعايش واحترام العقائد، فالعقائد لا تمس لأن المساس بالعقائد يفسد الحوار ولا يقرّ به.

ب ـ تعريف وتحديد مضمون الحوار

المقصود بالحوار هو تبادل الآراء والأفكار بأسلوب سلمي وهادئ يجري بين طرفين، يسوق كلّ منهما من الحديث ما يراه ويقتنع به، ويراجع الطرف الآخر في منطقه وفكره قاصداً تبيان الحقائق وتقريرها من وجهة نظره(١٢).

إن الحوار على ذلك هو تقبل الإصغاء إلى الآخر، والابتعاد عن روح التعصب، وهو يكون الكلام فيه على سبيل طلب الحق، وتلاقح أفكار الفريقين، واستفادة كلّ طرف من الآخر، وليس بالضرورة أن يكون فيه طرف غالب، وطرف مظهور عليه مغلوب. وعليه فإن الأصل في الحوار هو اختلاف الرؤى، وفي قبول هذا الاختلاف يتجلى التفاهم الذي يمليه احترام الآخر المختلف واستقلاليته عملاً بحرية الفكر كمعطى وجودي وأخلاقي ضمن ما يميز التحضر والتمدن على عكس التعصب والتعنيف(١٣).

وحوار الحضارات والثقافات ليس بالطبع غلبة أو سيطرة ثقافية معينة على الثقافات الأخرى، فالحوار ينتفي بالسيطرة والغلبة، ومن شروطه أن تكون أطرافه بعيدة عن التعصب، وذات نوايا حسنة، وأن يكون عادلاً مبنياً على رغبة في الفهم المشترك والوصول إلى هوامش متداخلة تعترف بالآخر وثقافته ورؤاه الاجتماعية والسياسية.

وقد تناول كثير من الباحثين والمفكرين وعلماء الدين ورجال السياسة هذا الموضوع من منطلقات مختلفة ولغايات متنوعة، ولكن القاسم المشترك الذي كان يجمع هذه الرؤى والدعوات هو ضرورة الحوار بشتى مضامينه ومجالاته، ومفهوم الحوار في الفكر السياسي والثقافي المعاصر من المفاهيم الجديدة حديثة العهد بالتناول، فليس الحوار من ألفاظ القانون الدولي، فهو لا يوجد له ذكر أصلاً في ميثاق الأمم المتحدة، ولا في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولا في العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولا في العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، ولا في إعلان مبادئ التعاون الدولي. وعلى هذا الأساس فإن الحوار بهذا المعنى هو مفهوم سياسي ثقافي حضاري وليس مفهوماً قانونياً(١٤).

إن للحوار والتفاهم مكاناً هاماً في العلاقة مع الغرب، ليس فقط من أجل المسوغات

---

(١٢) عبد الستار الهيتي، **الحوار.. الذات، والآخر**، سلسلة كتاب الأمة؛ [٩٩] (الدوحة: وزارة الأوقاف القطرية، ٢٠٠٤)، ص ٤٠.

(١٣) القباج، **مقاربات في الحوار والمواطنة ومجتمع المعرفة**، ص ٥٣.

(١٤) انظر: عبد العزيز بن عثمان التويجري، «الحوار الحضاري والثقافي: أهدافه ومجالاته،» **مجلة الرابطة**، العدد ٤٦٧ (أيار/مايو ٢٠٠٥)، ص ٦٧.

الاستراتيجية والسياسية، وإنما أيضاً من أجل النضوج في الرؤى الدعوية، وتطوير أساليب تقريب الآخرين من المفاهيم الفكرية والدينية الأساسية لهذه الأمة. والداخلون في الحوار يفترض فيهم الاقتناع بأن الحوار شيء نسبي تماماً، وليس رغبة مثالية يتمناها الطرفان من أجل حصولها فقط، بل ينظر إليه كونه وسيلة فضلى لمنع الصراع من التفاقم بسبب سوء الفهم أو سوء التفسير أو سوء الإدارة، فهو لا يعني التطابق فكرياً وعقائدياً، ولا يعني الذوبان للاختلافات في العقيدة، لكنه يساعد على أن نرى نقاط الالتقاء.

إن من أهم أعمدة البناء الحضاري في الإسلام إرساء منظومة القيم التي تؤثر في حياة البشر وسلوكياتهم، وتحدد شكل العلاقات الاجتماعية وأنماط التفاعل الإنساني المؤدية إلى التعاون الإيجابي والحوار الهادف البناء، وإن صياغة أي إطار لنظرية الحضارة ومعاييرها لا تكتمل إلا بوجود قيم الخير والحق والجمال، وفي هذه الحصيلة تكمن القوة الدافعة للفكر الإنساني بأن يفعل شيئاً معيناً ويحجم عن فعل شيء آخر.

إن الحوار بين الحضارات تزداد أهميته القصوى في هذه المرحلة من التاريخ الإنساني، حيث تتصاعد التحديات التي تواجه البشرية في شتى المجالات، بمعنى أنه يؤدي إلى المعرفة عن طريق إعداد الأسئلة الجوهرية الهادفة إلى الحصول على المعرفة الموضوعية الدقيقة، وبذلك يحصل التصور الصحيح للحقائق(١٥).

ومن هنا فإن الحوار إلى جانب كونه معرفة، هو أخلاق، لأن لا أحد يملك الحقيقة المطلقة وحده، أي أن الحقيقة لا يملكها طرف واحد(١٦).

ج ـ ما هي الأهداف الرئيسيّة لهذا الحوار؟

بالنظر إلى تاريخ الإسلام، فإن الحوار قد حقق أهدافاً كثيرة، وكانت له آثاره الجيدة، ومن أهم أهداف الحوار: الوصول إلى الحق، وترجيح أحد الآراء المطروحة، وتضييق هذا الخلاف، وتقريب وجهات النظر.

وأهداف الحوار لخصها وزير الخارجية الجزائري السابق الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي في الآتي:

(١) هدف عقائدي: وهو تصحيح الصورة التي روجت عن الإسلام عقيدة وشريعة، وقد اشترك في هذه القولبة الإعلامية مجموعة من الصحافيين الذين يستمدون مرجعيتهم من عدد من الأكاديميين. ومن الأمثلة على ذلك، التهويل الإعلامي الغربي لمفهوم الإرهاب والاقتصار في رصده وإدانته الأخلاقية للعمليات المتطرفة التي تقوم بها مجموعات مسلحة مع التغاضي عن عمليات الإرهاب المبرمج الذي تمارسه بعض الدول(١٧).

---

(١٥) القباج، المصدر نفسه، ص ٥٨.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(١٧) الإبراهيمي، «حوار الحضارات».

(٢) على الصعيد السياسي: إن الحوار لا يكون إلا بين حضارات متكافئة، وهذا الحوار غير ممكن ما دامت الحضارة الغربية هي الفاعل الوحيد على مسرح العالم.

نعم ـ كما يقول الإبراهيمي ـ يسمح للحضارات الأخرى بأن تصرخ في منابر كثيرة مثل الجمعية العامة للأمم المتحدة، لأنها تشبه حديقة «هايد بارك». ولكن عندما يتعلق الأمر بالمحافل التي يصنع فيها القرار، مثل مجلس الأمن، فهناك تتم عملية إقصاء الحضارات الأخرى(١٨).

(٣) على الصعيد الاقتصادي: وبما أن الشرط الأساسي للوصول إلى العضوية الدائمة في مجلس الأمن هو أن تكون قوة اقتصادية، ودليل ذلك أن المرشحين الحاليين لهذه العضوية الدائمة ألمانيا واليابان، فيجب علينا أن نبني اقتصاداً متيناً، حتّى نشارك في صنع القرار.

(٤) على الصعيد الخلقي: إن الإله الحقيقي للحضارة الغربية هو النماء المادي، ما ولد ثقافة يأس وفلسفة سخرية الوجود، حيث يعلمون الشباب المسلم أن الحياة ليس لها معنى، وأن كلّ شيء مباح، حتّى الجريمة والعنف ضدّ الأفراد والشعوب، وأن العلم والتكنولوجيا غاية، بينما نحن نعتبرها وسيلة لخدمة الإنسان وإسعاد البشرية.

الحضارة الإسلامية هي واسطة عقد حضارات العالم، ليس لأنها حضارة الأمة الوسط زمنياً فحسب، بل الأمة الوسط عقائدياً وثقافياً أيضاً.

فالحوار إذاً ليس مفهوماً جديداً أو مبدأ مستحدثاً، بل هو فكرة جاءت مع بداية القرن السابع الميلادي، حيث كان العالم يموج بحضارات عدة، وتتنازع فيه حضارتان عظيمتان: حضارة الرومان في الغرب، وحضارة الفرس في الشرق، ومن دونهما حضارات أخرى كحضارة الصين في أقصى الشرق، وحضارة الحبشة في أفريقيا وغيرهما، ثمّ كانت جزيرة العرب على موعد مع التاريخ لتبزغ فيه حضارة جديدة، تكون لها الريادة في ذلك العالم المتصارع، فكان مبعث رسول الله (ﷺ) ليؤسس الحضارة الإسلامية التي كتب الله لها البقاء من خلال حفظ منهجها الذي قال الله تعالى عنه ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾(١٩).

ومن عناصر القوة في حضارة الإسلام، أنها تضمنت مبدأ حوار الحضارات، هذا المبدأ الذي تجلى واضحاً في التطبيق العملي على يدّ المؤسس العظيم لهذه الحضارة. والنماذج البارزة لهذا التطبيق من الكثرة التي تعلو على الحصر في هذا المقام، فالحضارة الإسلامية هي واسطة عقد حضارات العالم، ليس لأنها حضارة الأمة الوسط زمنياً فحسب، بل الأمة الوسط عقائدياً وثقافياً أيضاً، بحكم الله سبحانه وتعالى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على**

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) **القرآن الكريم**، «سورة الحجر،» الآية ٩.

الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[٢٠]، فضلاً عن كونها حضارة خير أمة بتوفيق الله، حيث قال الله في القرآن الكريم: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[٢١].

ومن ثمّ فإن هذه الحضارة لا يزعجها أن تنظر في الحضارات التي سبقتها حتّى ولو كانت لأمم بائدة، فهي لا تستعظم إنجازاتها ولا تحقرها، بل تأخذ منها العبرة والعظة وما يمكن أن تحصل عليه من فائدة مادية ومعنوية، كما أنها لا تخشى النظر إلى الحضارات المعاصرة وما يتعلق بها من تقدّم علمي وتقني، لأنها ترتكز في نظرتها إلى ذلك الرصيد الهائل من أدوات المعرفة التي هُيئت لها باعتبارها الحضارة الوسط، وباعتبارها الشاهد على غيرها من الحضارات، وباعتبار الأسلوب المرعي لأصحابها هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

ثانياً: البعد الديني وحوار الحضارات

مما لا شكّ فيه أن الحوار قد أصبح ضرورة من ضرورات العصر الحديث للتغلب على المشكلات الواقعية في عالمنا. وتعد القضايا الدينية جزءاً لا يتجزأ من مشكلات عالمنا الواقعية، والحوار الديني جزء لا يتجزأ من الحوار بين الحضارات، وذلك باعتبار أن الدين هو أحد المكونات الرئيسيّة لأية حضارة، والحوار هو لغة الحكماء، ويكشف عن أرضية مشتركة فسيحة بين كلّ الأديان السماوية. ولا شكّ أن أهم شروط الحوار هو قبول الآخر، فلا يمكن أن يحدث حوار بين طرفين، كلّ منهما يرفض الآخر أو يسعى إلى نفيه. ولا شكّ أن الدين الإسلامي كان أول الداعين إلى الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة، والبعد عن التعصب وفرض منطق الواقع على الآخرين. ولا شكّ أن تحقيق السلام في العالم يتوقف على السلام بين الأديان، وهذا يعني أن السلام يتوقف على الحوار بين الأديان كذلك.

إن الأديان التي لا تقوم بدورها الحضاري ليست هي ما أنزل الله. والإسلام بوجه خاص لم يكن إلا تتويجاً لهذه المسيرة الحضارية الإيمانية، فقد أضاف إلى الحياة البشرية إضافات شديدة البساطة، شديدة الأهمية، شديدة الدلالة، أضاف عمقاً لقيمة الحرية بأن الإنسان حرّ في ما يفعله بشرط عدم إيذاء الآخرين، وبأن كلّ حقّ يقابله واجب، وأضاف عمقاً لحرية المعتقد وعدم الإكراه على اتباع تعاليمه ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾[٢٢].

إلا أنه من شروط الحوار أن يكون كلّ طرف نداً للآخر، وأن تكون هناك أرضية مشتركة للحوار، خصوصاً وأن هناك أساسيات، وقيم مشتركة بين الأديان الثلاثة، كلها: الإسلام واليهودية والمسيحية، تلتقي في أصلها العقائدي من حيث دعوتها للبشر إلى عبادة الله الواحد،

---

(٢٠) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ١٤٣.

(٢١) المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآية ١١٠.

(٢٢) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٢٥٦.

خالق الكون والطبيعة والإنسان، وفي أصلها التاريخي من حيث تفرعها من الإبراهيمية الحنيفية، فقد كان النبي إبراهيم عليه السلام أباً لإسحاق الذي منه انحدر رسل وأنبياء بني إسرائيل، وموسى وعيسى من بينهم، وأباً لإسماعيل الذي استقر وأمه هاجر بمكة، ومن نسله ولد محمّد (ﷺ) خاتم الأنبياء والمرسلين.

والشاهد أن العلاقات بين الحضارات في الماضي وحتّى في المستقبل لا تحكمها فرضية واحدة، ولا فرضية التصادم بين الحضارات فحسب، والذي نعرفه كمثال عن العلاقة بين الأديان في عصر الحضارة الإسلامية في الأندلس كانت على درجة عالية من التعايش والتسامح بين المسلمين والمسيحيين واليهود، وحينما خرج المسلمون من الأندلس بعد انهيار حضارتهم سنة ١٤٩٢، خرج معهم اليهود إلى تركيا خوفاً على أنفسهم من الذين حكموا الأندلس، والأمثلة كثيرة.

ولذلك فمقولة «صدام الحضارات» لهانتنغتون ومقولة «نهاية التاريخ» لفرانسيس فوكوياما كانتا متسرعتين في أحكامهما وتحليلهما، وهذا التسرع أفقدهما العمق والنضج، وهما تبعثان تراث الحروب الصليبية من جديد. ففي سياق الحملة التي يتعرض لها المسلمون، وبالتالي الدين الإسلامي، في جميع أنحاء الغرب، تصدر أصوات عدة تتهم الإسلام بأنه دين التعصب والتزمت، ورفض الحوار مع الآخر أو التعايش مع الجماعات المختلفة عنه.

ومما يزيد في إوار هذه الحملة، أن ثمة ممارسات ومواقف تتخذها أطراف محسوبة على أتباع الديانات الأخرى، ترفض الاعتراف بنبينا خاتم الأنبياء والمرسلين، ونحن نعترف بِكُلّ الأنبياء، فكيف يتم الحوار؟ وأي حوار يتحدثون عنه؟ ثمّ إن البابا بندكت السادس عشر نفسه ألغى إدارة حوار الأديان من الفاتيكان في الأسبوع الأول من تعيينه وضمها إلى لجنة الثقافات، فهو يعترف بالإسلام ثقافة وفلسفة من الفلسفات وليس بوحي.

ويرى كثير من الباحثين أن الحوار هو بديل للماسونية، وأن الدعوة إلى الحوار بين الحضارات أو بين الأديان أو الدعوة إلى إحياء الإبراهيمية كلها محاولات لإخراج المسلمين من عقيدة التوحيد، بدعوى أن دين الله واحد، متجاهلين تلك المحاذير التي اتّصلت بالأديان والكتب السابقة للإسلام، والتي تتصل بسلامة النصوص، ولعل من وراء هذه الدعوات العمل على إسقاط الإيمان بالأديان كلية، لأن الدين في زعمهم أداة للتعصب(٢٣).

ولذلك لا نستطيع أن نقول إن هناك اتفاقاً تاماً في كلّ الأمور، فالأديان السماوية الثلاثة بينها من الفوارق الواسعة ما يجعل الجمع بينها مستحيلاً، ولكن من الممكن أن نقول لأصحاب تلك الأديان السماوية: «تواصوا بالرحمة والسماحة وإقامة العدل بينكم وبالتعامل على قواعد الشرف والأخوة والوقوف في وجه الإلحاد والوثنية»(٢٤).

---

(٢٣) أنور الجندي، «الحوار بين الأديان،» **منار الإسلام**، السنة ٣، العدد ١ ([د. ت.])، ص ٩٤.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٨٦ وما بعدها.

كذلك فإن على علماء المسلمين أن يردوا تماماً فكرة التقريب بين الأديان لأنها لا تعني إلا الاعتراف بالأديان بوصفها الحالي الذي تختلف فيه عن حقيقتها التي أنزلت بها، حتّى لا يظن الناس أن هذه الأديان صحيحة ويسلم المسلمون بصحتها، وهذا معناه أن الإسلام لم يأتِ بجديد بعد اليهودية والنصرانية، ذلك أن نغمة وحدة الأديان هي من الأهداف الخفية للماسونية.

وفي عديد من اللقاءات رفض المحاورون النصارى نبوة الرسول (ﷺ) وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام، ومن ذلك دعواهم إلى ما يسمّى بإحلال التفاهم بين الديانتين على شروط النصارى، واشتراطهم على المسلمين التنازل عن أشياء كثيرة.

وقد بلغوا في ذلك قدراً من الانحراف الشديد بإشراك العلمانيين والماركسيين في جلساتهم حتّى يكون الهجوم على الإسلام من جانبهم وليس من جانب الكهنة والقساوسة[٢٥].

إن الحوار لا يعني نسيان أو تجاهل التميز بين الحضارات، لكن العزلة عن التأثيرات الحضارية الأخرى أمر صعب مثله مثل التبعية والذوبان.

والحوار لا بدّ أن ينطلق من استعداد كلّ حضارة لفهم الأخرى وتجنب إصدار أحكام مسبقة عليها، والاتفاق على إعادة صياغة صورة الأخرى في إطار من التسامح، والرغبة المشتركة في بلورة فهم إنساني، لإحداث التفاعل الحضاري. وقد تساعد في ذلك معطيات المجتمع العالمي الجديد القائم على إنتاج المعلومات وتداولها بشكل سريع وميسور، وواسع يتجاوز الحدود الجغرافية للحضارات والثقافات[٢٦].

أما غير ذلك فلن يثمر أي شيء ولن يعطي نتائجه المرجوة، وإن التواصل الحضاري كان ولا يزال يمثل صورة رائعة من الحوار الحضاري، بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وأن العالم الإسلامي لا يميل إلى الصدام مع أي حضارة من الحضارات.

بهذا الوعي، وبهذا الإيمان بالذات فقط، يمكننا أن نكسب جولات الحوار، ونعيد تقويم الأمور بميزان جديد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولقد كتب الدكتور عبد الحليم محمود موضحاً الأسس التي يجب أن يقوم عليها الحوار، قال: أحب أن أنبه في مودة من أجل تفاهم عميق إلى بعض الأمور:

١ ـ الإسلام منذ أن بدأ خالف الجو العالمي اليهودي والوثني في أمر عيسى عليه السلام، فقد أعلن الإسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه، أما عيسى عليه السلام فهو وجيه في الدنيا والآخرة، وأما أمه فهي صِدِّيقة، ووجود عيسى عليه السلام جزء من إيمان

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٨٨ وما بعدها.

(٢٦) القباج، **مقاربات في الحوار والمواطنة ومجتمع المعرفة**، ص ٦٣ وما بعدها.

المسلم، ولم يقف الإسلام من عيسى عليه السلام وأمه موقف اليهود الذين مازالوا على موقفهم، فقد افتروا على عيسى وأمه ورموهما ببهتان شنيع، أما الإسلام فمجدهما ومازال مستمراً في تمجيده هذا، فماذا لقي المسلمون من النصارى مقابل هذا؟

٢ ـ إنّه لا بدّ من الاعتراف بالدين الإسلامي ورسوله حتّى ينال المسلمون في أوروبا والغرب بصفة عامة ما يناله اليهود من الاعتراف بأعيادهم وشعائرهم، وإنه لا يتأتى التفاهم بين أتباع رسول يحبه المسلمون هو عيسى عليه السلام، وأتباع رسول لا يعترف به النصارى وهو محمّد (ﷺ).

٣ ـ إن المسلمين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والإلحاد، وكان يجب أن يسير معهم النصارى في خطّ متساند ضدّ التيارات المنحرفة، ولكن للأسف يسير النصارى في طريق تنصير المسلمين بقوة، فيعملون ليل نهار على تنصير المسلمين في كلّ مكان في العالم، ولو حصر نشاطهم في تنصير الوثنيين لكان المصاب أخف، ولما أثار ذلك ضيق المسلمين الشديد وكراهيتهم للأسلوب وموضوع التنصير[٢٧].

ينبغي أن ندرك جيداً أن اللجوء إلى الحوار بدلاً من الصدام يمثل بحق تعبيراً عن نضج فكري ووعي حضاري ورغبة أكيدة في التعاون والتفاهم.

وبين يدي هذا الأمر لا بدّ من التنويه بِكُلّ موضوعية بسمات النظرة الجديدة للتعاون في ما بين الأديان، على ما يلي:

أ ـ لا بدّ أن نضع باعتبارنا أن أتباع كلّ دين يعتقدون أن من حقهم العمل على نشر معتقداتهم وتوسيع دائرة المؤمنين بها لإيمانهم بأن ذلك واجب ديني يلزمهم بذل الجهد واتخاذ الوسائل المناسبة والممكنة لتحقيق هذه الغاية المقدسة لديهم.

ب ـ لا بدّ أن نعترف بأنه ونتيجة لتجارب الأمم المريرة والمدمرة (التاريخية منها والمعاصرة) أصبح لزاماً على عقلاء العالم وحكمائه الجلوس والحوار مع الآخر وتفهم مصالحه وخصوصياته الدينية والحضارية، ومن ثمّ السعي لإيجاد معايير مشتركة، موضوعية، جادة، وعادلة لإمكانية توفير تعايش بشري كريم.

ج ـ إن هناك ثوابت عقيدية ينبغي الوقوف عندها وعدم تجاوزها أو التهاون بها.

د ـ إن حرية الدين لأهل الكتاب في ديار المسلمين إنما هي حرية اعتقاد وممارسة ذاتية، لا حرية دعوة ومضاهاة لدين الإسلام في أوساط المجتمع المسلم.

إن النظرة الجديدة للتعاون في ما بين الأديان هي النظرة نفسها التي حددها مفكرو الإسلام، فجمال الدين الأفغاني نفر من مقولة سني وشيعي، وقال بأنه لا يحب هذه التفرقة

(٢٧) الجندي، المصدر نفسه.

التي أحدثتها مطامع الملوك، لجهل الأمة، وهو قول موافق لقوله تعالى: ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء**﴾[٢٨].

ثالثاً: قضية التصادم والتدافع بين الحضارات

قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي عميقة الجذور، ويمثل الاستشراق خلفيتها الفكرية[٢٩]، فهو الذي صاغ التصورات الأوروبية عن الإسلام للغربيين. ويستقي الغرب معلوماته من كتابات المستشرقين، حتّى الفلاسفة والأدباء الغربيين يروجون كتابات المستشرقين ويجعلونها مصادرهم بهدف ترسيخ ما يذهب إليه هؤلاء من اتجاهات هدامة ضدّ الإسلام.

وإذا كان التاريخ في مسيرته الحضارية يترك، إلى جانب المعارك والصراعات والإيجابيات والسلبيات، بعض القيم والمعطيات التي يجب أن تستقر في وعي المجموع البشري، وترقى إلى مستوى الثوابت، فإن الرفض الكامل أو القبول الكامل يضيع على البشرية هذه الحصيلة التي تدفع البشرية ثمنها غالياً، ولا يجب أن تهدر بحال من الأحوال.

وبالتالي، فإن هذين الطرفين اللذين واجها الحضارة الحديثة لم يمثلا الرد الحضاري الموضوعي، ولقد كان (حتماً) ما دام الصراع بين حضارتين أن يتداعى هذان الطرفان، وأن يقوما بواجب الحوار الحضاري مع بعضهما البعض الآخر.

والتعارف بين المجتمعات والحضارات مبدأ دعا إليه القرآن الكريم، وهو ضدّ التصادم والتنافر، هذا المبدأ من أهم المبادئ التي بنى عليها الإسلام منهجه في التعامل مع الآخرين، كما أكد ضرورة الحوار على أساس من الاحترام والاعتراف بالآخر، بل إنّه وضع قاعدة التحاور والتفاهم على أساس من الإنصاف لم يعرفه فكر ولا فلسفة غيره، قال تعالى: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾[٣٠].

ويعد التعارف والحوار من أهم الأسس الهامة في الإسلام، وكلمة «حوار الحضارات» جاءت كرد فعل على مقولة «صدام الحضارات»، وسنحاول هنا الكشف عن مكمن الداء، والهدف الجوهري من وراء إطلاق صراع الحضارات في الغرب، واختزال التناقضات العالمية وإبراز جانبها الديني كصراع بين الإسلام والغرب على سبيل المثال، وإخفاء حقيقة الصراع الأساسي القائم بين الفقراء والأغنياء في كلّ المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية.

ومن بين أهم النظريات والأفكار التي حاولت تفسير التحولات السياسية العالمية

---

(٢٨) **القرآن الكريم**، «سورة الأنعام،» الآية ١٥٩.

(٢٩) انظر البدراوي عبد الوهاب زهران، «الاستشراق المشبوه ودوره في تشويه تاريخ الأمة الإسلامية وواجب إعلامنا حياله،» **مجلة الفن الإذاعي**، العدد ١٢٤ ([د. ت.]).

(٣٠) **القرآن الكريم**، «سورة سبإ،» الآية ٢٤.

وتشخيص مستقبليات ما بعد الحرب الباردة، «نظرية صدام الحضارات» التي طرحها صامويل هانتنغتون[(٣١)]، والتي أثارت جدلاً واسعاً[(٣٢)] واستقطبت اهتماماً مميزاً عند الكتاب والباحثين في حوارات وندوات وفي معاهد ثقافية وعلمية بالإضافة إلى المجلات والدوريات في الغرب وفي العالم العربي والإسلامي.

وهنا يبرز سؤال منهجي، ما هي الأسباب الحقيقية التي تجعل البعض يصرّ على تبني «صراع الحضارات»؟ في حين أن النظرة العلمية السليمة في هذا المجال، هي حوار الحضارات الذي أثبته تاريخ البشرية منذ نشأته حتّى الآن.

ويتساءل البعض بِكُلّ حرقة، ترى أين صنعت جراحات العداء بين المسلمين والغرب؟ وأين، ومتى، وكيف، ولماذا صنع وهم الشمال والجنوب؟ ولحساب من تركب الأسنة لفرض أجندات ظالمة على الشعوب العربية والإسلامية؟ ولماذا يطلب من ثقافات هذه الشعوب أن تتوارى في العتمة لصالح ثقافات أقل ما يقال عنها أن تجربتها في أرضها خانها التوفيق، وحايدها الصواب في غالب بنودها وعناصر تكوينها، وهل من خيارات أمام الإنسان في هذا الخضم الذي يلهث خلف المادة وحب السيطرة على الآخرين وما بين أيديهم؟

ولكي يتوضح لنا من الذي يؤز نار هذه الفتنة التي تعتدي على سنة منهج التدافع الرباني السلمي، يحسن بنا أن نقرأ ما قاله «تشارلز وليام مينز»: «فلو نظرنا إلى حالات العنف التي شملت البعد الإسلامي مؤخراً في البوسنة والعراق والقوقاز، نجد أن العنصر غير المسلم هو الذي يعتدي على المسلم، ويغذي بالتالي دائرة العنف»[(٣٣)].

وهي كلمة صريحة يعترف بها كاتب من الغرب بأن حضارته وثقافته هي التي تذكي نار الفتنة، وتبدي ما تكنه في داخلها من كراهية وأحقاد، وقد يكون معلوماً لدى العقلاء أن الصراع لا يصنع الأفضل لِكُلّ الأطراف، وهنا يجب أن نحترم أمانة التاريخ وأن نقرأ الأمور بجدية أكثر، وربما كانت مجموعة القوى الغربية المفضلة لهذا الصراع تركض وراء الوهم.

وينتقد البروفسور إسبوزيتو الغرب والافتتاحيات والمقالات في الصحف الغربية التي تحمل عناوين متشائمة من نوع «ذروة الأزمة صدام الحضارات» و«الحرب الإسلامية ضدّ الحداثة» و«الإسلام الصاعد ربما يهيمن على الغرب» مشيراً إلى أن هذه العبارات تستولي على الانتباه الغربي العام، وفي الوقت ذاته تبالغ وتشوه طبيعة الإسلام، والحقائق السياسية في

---

(٣١) صامويل هانتنغتون هو أستاذ العلوم السياسية، ومدير معهد جون م. أولين للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفرد. انظر: Samuel P. Huntington, «The Clash of Civilizations,» *Foreign Affairs*, vol. 72, no. 3 (Summer 1993).

(٣٢) انتهى في نظريته إلى القول بأن صدام الحضارات هو الخطر الأكثر تهديداً للسلم العالمي وأن الضمان الأكبر الأكيد ضدّ حرب عالمية هو نظام عالمي يقوم على حوار الحضارات، وأدخل في إطار الحضارة: الآداب والتقاليد والديانة، والثقافة وركز على دور المذهب بهذا الصدد.

(٣٣) **العرب اليوم**، ١٤/٣/١٩٩٨.

العالم الإسلامي وعلاقته المختلفة مع الغرب، ويصف هذه العبارات، بأنها تكرس لدرجة مدهشة من الجهل والتنميط الثقافي للغرب والمسلمين.

وحول علاقة الإسلام بالغرب يشير إسبوزيتو إلى أن علاقة الإسلام بالغرب تميزت بالتجاهل والاحتقار والصراع المتبادل، رغم الجذور اللاهوتية المشتركة، والتفاعل بينهما على مرّ القرون، وفسر ذلك بأن نجاح الإسلام وتوسعه وهو لا يزال وليداً، شكل تحدياً قوياً على المستوى اللاهوتي والسياسي والثقافي للغرب المسيحي، ويذهب إسبوزيتو إلى أنه بينما يوصف تغريب العالم الإسلامي وعلمنته بالإدانة، فإن التحديث بحدّ ذاته ليس محلاً للإدانة، فالعلم والتكنولوجيا مقبولان، ويستخدمهما الإسلاميون في شؤون حياتهم وفي نشر الدعوة، بينما وصف الجماعات الراديكالية بأنها تفترض أن الإسلام والغرب في معركة مضنية يعود تاريخها إلى أيام الإسلام الباكرة، وأنها معركة تحمل تأثيرات ثقيلة من ميراث الحروب الصليبية والاستعمار الأوروبي.

لا يوجد أي إشكال لا يمكن حله بالحوار وبالاقتراب بدل الابتعاد، ومسؤولية مثل هذا الحوار لا تقع على كاهل المسلمين وحدهم.

وسرد إسبوزيتو بأسلوب لا يخلو من الإعجاب بعض مظاهر الحضارة الإسلامية واصفاً المسلمين بأنهم يحسنون التعلم كما يحسنون الفعل، إضافة إلى ذكر جوانب هامة من الشريعة الإسلامية تحت عنوان «الشريعة الإسلامية شرع الله» تحدث خلالها عن أركان الإسلام الخمسة، لافتاً النظر إلى أن غير المسلمين عاشوا تحت حكم الإسلام في وضع أفضل من عيشهم تحت الحكم الأجنبي السابق له، وأن الحكام المسلمين كانوا أكثر مرونة وتسامحاً معهم، وأنهم دفعوا ضرائب أقل في ظلّ الإسلام، ملمحاً إلى أن الاضطهاد الذي عاناه أهل هذه البلاد تحت الحكم الأجنبي دفع الجماعات اليهودية والمسيحية إلى مساعدة جيوش المسلمين لفتح بلادهم.

وينتقد إسبوزيتو في كتابه غالبية الغربيين لأن مفهومهم خاطئ عن التاريخ الإسلامي، فقد تشكلت في أذهانهم معلومات ومواقف تجاه المسلمين، والعالم الإسلامي بفعل التصورات والتجارب التي صكت في كبسولات من عينة «الأصولية الإسلامية»، و«الإرهاب» معبراً عن أسفه لأن عبارة كالأصولية الإسلامية باتت وسيلة كافية، وإن كانت مضللة، تستخدمها الحكومات ووسائل الإعلام الغربية لتعريف مجموعات تنتشر في طول العالم الإسلامي وعرضه، كما صارت هذه العبارة «غولاً جاهزاً» تستخدمه أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية لتلطيخ سمعة المعارضة والحط من قدرها، وينتقد إسبوزيتو التحليل الانتقائي للغرب دون محاولة للفهم الحقيقي للأسباب المؤدية والكامنة خلف العنف، نافياً أن يكون الإسلام تهديداً للغرب، لكنه وصفه بأنه تحد يواجه الحضارة الغربية باعتباره أسلوباً مختلفاً عن حياة الغرب، ووجه إسبوزيتو في هذا السياق نقداً حاداً لصامويل هانتنغتون صاحب «صدام الحضارات» ووصف مناقشته بأنها استفزازية

للإسلام، وينتقد هانتنغتون وفهمه المتحجر لمعنى الحضارات[٣٤].

وينبغي أن ندرك جيداً أن اللجوء إلى الحوار بدلاً من الصدام، يمثل بحق تعبيراً عن نضج فكري ووعي حضاري ورغبة أكيدة في التعاون والتفاهم، وإن كان هذا الحوار الذي يدعو إليه الكثير لا يجد آذاناً صاغية من لدن الغرب، فهو دائماً تجده يضع عراقيل في سبيل إفشال الحوار، ويتحامل على الإسلام من خلال ما ينشر في الصحافة الغربية التي وصلت في حملتها إلى حدّ المطالبة بالقضاء على الدين الإسلامي، وتمرس الغرب خلف رؤيته التي كونها من خلال المستشرقين والتي تعتمد على الانتقائية من الثقافة الإسلامية وعلى عملية التشويه التي مارسوها. ولو نظرنا إلى خريطة الصراعات في العالم الإسلامي لوجدنا أننا محاطون بالفعل بمحاور عدة لهذه الصراعات، وإن المسلمين في حالة مواجهة مع الغرب اليوم في كثير من المواقع، وإنه يقف ضدّ مصالحهم في العديد من المنازعات القائمة.

ونخلص من هذا إلى أن الحضارة الغربية في مرحلتها الراهنة التي تؤكد في الواقع مبادئ المركزية وروح الهيمنة وترسيخ مثالها ونموذجها، لا يمكن لها أن تتجاوز الحضارة الإسلامية والرؤية الإسلامية، المرتكزة هي الأخرى على ثبات الوحدانية في الاعتقاد، وخاصية العالمية في الدعوة والبلاغ، وشمول التشريع بالاجتهاد واستيعاب المستجدات، وتميز التصور الحق للإنسان، والكون، والحياة، فالقول إذاً بأن النموذج الليبرالي الغربي يمثل نهاية التاريخ، أو إن صدام الحضارات سيكون أكبر معلم يميز أحداث الألفية الثالثة، وذلك باشتراك وتحالف الحضارة الإسلامية مع الحضارة الكونفوشيوسية ضدّ الحضارة الغربية، كما ذهب إلى ذلك الأمريكي صامويل هانتنغتون، يظل تجديفاً في المجهول، فلا أحد من الناس يعلم بدقة أو على وجه اليقين إلى أين يسير العالم، ولا كيف سيكون مصيره.

إن مستقبل الحضارة الراشدة سوف يكون حتماً رهن السلوك الراشد، ورهن احترام الخصوصيات الفكرية والحضارية، ووضع حدّ لممارسات العدوان الثقافي الغربي والقهرية الحضارية الغربية، وفتح القنوات الفاعلة للحوار الحقيقي بين شتى الأنساق الفكرية والاجتماعية والمنطلقات الحضارية، قصد السعي لتحقيق نظام عالمي إنساني عادل تتعايش في ظلاله جميع المجتمعات والمجموعات البشرية، قوامه توازن المصالح والتعاون في دائرة المشترك الإنساني العام، واحترام الخصوصيات الحضارية والاجتماعية.

إننا الآن بحاجة إلى الحوار والتفاهم ما دامت المسألة مسألة تصادم مصالح وليست تصادم حضارات، لا يوجد أي إشكال لا يمكن حله بالحوار وبالاقتراب بدل الابتعاد، ومسؤولية مثل هذا الحوار لا تقع على كاهل المسلمين وحدهم، بل إنّها تقع أيضاً على كاهل الطرف الآخر الذي له مصالح كثيرة، والذي من شأنه أن يخرس الأصوات التي ذهبت بعيداً في تبني نظرية صدام الحضارات □

---

(٣٤) انظر: جون. ل إسبوزيتو، **التهديد الإسلامي.. خرافة أم حقيقة؟**، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط ٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢).